قراءات ومراجعات

قراءة في كتاب علم العمران الخلدوني*
تأليف: صالح طاهر مشوش**

عبد الله عطا محمد عمر***

تعددت المصنفات حول جهود ابن خلدون في عملية النهوض الحضاري، وكتب في ذلك كثيرون، ولكن هذا الكتاب يُعد من وجهة نظر مؤلفه أول محاولة عنيت بدارسة الرؤية الكونية التوحيدية وأثرها في صياغة علم العمران البشري، الذي يعد إحياؤه مطلباً علمياً ودينياً وحضارياً، ذلك أن الأمة الإسلامية ستظل عاجزة عن النهوض ما لم تتمكن من تشخيص الداء، وصناعة الدواء المناسب. ويحاول المؤلف إبراز العلاقة بين الفكر الخلدوني ومصادر الوحي من خلال الإجابة عن أسئلة مهمة حول وظيفة النظرة الكونية وأثرها المعرفي، وطرق الاستدلال التي سلكها في تفسير الظواهر العمرانية، والجوانب المسكوت عنها في القراءات التقليدية للفكر الخلدوني. ولكي يحقق هذه الأهداف التزم المؤلف تحليل النصوص من وجهة نظر أصولية، مستعيناً ببعض المدارس التي لها علاقة بعلم العمران، وحرص على التأكيد على البعد الديني في الفكر الخلدوني، وعرض بعض الجوانب الفكرية لحل المشكلات المعاصرة التي تواجه العالم الإسلامي.

يقع هذا الكتاب في حوالي (٤٥٠ صفحة) قسّمه صاحبه إلى ستة فصول، تحدث في **الفصل الأول** الموسوم بـ"قراءة في اتجاهات الدراسات الخلدونية المعاصرة" عن بدايات

---

* مشوش، صالح بن طاهر. **علم العمران الخلدوني وأثر الرؤية الكونية التوحيدية في صياغته: دراسة تحليلية للإنسان والمعرفة عند ابن خلدون**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠١٢م.

** أستاذ مساعد بقسم الدراسات العامة بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

*** دكتوراه في الحديث الشريف وعلومه، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، أطروحته حول "منهج ابن خلدون في التعامل مع السنة النبوية" باحث ومحقق، له دراية واهتمام بتحقيق كتب التراث، وعناية بأسباب النهوض الحضاري. البريد الإلكتروني: dabd_alali2010@hotmail.com

تم تسلّم القراءة بتاريخ ٢٠١٣/٨/٣١م، وقُبلت للنشر بتاريخ ٢٠١٤/١/١٥م.

اهتمام المفكرين الغربيين والأتراك وغيرهم من المستشرقين، لا سيما علماء الاجتماع أمثال فيرايو ١٨٦٩، وكامبلويز ١٨٩٨م، وكولوسيو١٩١٤م، ومونيير١٩١٢م. وتمثلت الدراسات المعاصرة في ثلاثة اتجاهات هي: الاستشراقية والعربية والإسلامية.

ويرى المؤلف أن الدراسات الاستشراقية التي اشتغلت بقضايا الفكر الخلدوني زادت عن (٨٥٠) مؤلفاً، وقد عملت بعض هذه الدراسات على محاولة عزله عن جذوره الإسلامية، وتقليل أثره وتأثيره، فالاستشراق الفرنسي حاول استعمال نصوص المقدمة لتعزيز النظرة العنصرية، بإلصاق صفات التوحش والبداوة بالعرب طوال قرن كامل، لكن التاريخ والواقع أثبت تهافت ذلك المشروع الاستعماري.

فقد اعترف (جيب) عام ١٩٣٣م بالأثر الديني القوي في الفكر السياسي الخلدوني، إلا أنه لم يكن موضوعياً؛ إذ كان يرى أن توظيف الدين مجرد مظهر من مظاهر التحيز الديني (religious bias) الذي يقابل الموضوعية العلمية في فهم المظاهر، أما (Bruce B. Lawrence) فقد حاول تحديد أثر فكر ابن خلدون في الإصلاحات، وأكد على حدوث إهمال بهذا الفكر في الخطاب الإصلاحي الحديث.[١]

ويقرر المؤلف أن بعض البحوث التي أنجزها العرب تتبنى مناهج غربية في التحليل، ذلك أنها وقعت تحت تأثير بعض المستشرقين، ومن ذلك ما سطّره طه حسين في "فلسفة ابن خلدون الاجتماعية"؛ إذ انحاز فيه إلى الفكر الاستشراقي، وجاء بتأويلات لا يسندها البحث العلمي والموضوعي فيما ذهب إليه ابن خلدون، منها عدم إقراره بالقيمة العلمية للفكر الخلدوني وإبداعاته، وتقليله من أهمية المقدمة. وساطع الحصري في كتابه "دراسات عن مقدمة ابن خلدون"؛ إذ عقد عدة مقارنات بين ابن خلدون وغيره من العلماء الغربيين، كـ(فيكو) و(مونتسكيو)، وقام بتحليل بعض المفاهيم الواردة في المقدمة بما يخدم إيديولوجية الفكر القومي، كالعصبية وغيرها.

ودرس علي الوردي في كتابه "منطق ابن خلدون" المنطق الذي جرى عليه تفكير ابن خلدون، والعوامل التي ساعدت على إنشاء نظريته، وخالف ما سار عليه محسن مهدي

[١] مشوش، **علم العمران الخلدوني وأثر الرؤية الكونية التوحيدية في صياغته** مرجع سابق، ص٣٣.

في كتابه "فلسفة التاريخ عند ابن خلدون" في التزامه بالمنطق الأرسطي. ومنها "نظرية ابن خلدون التاريخية الاجتماعية" لكمال عياد، الذي حاول عزل تجربة ابن خلدون العلمية عن العقيدة والشريعة الإسلامية، ويعتقد أن ابن خلدون يفصل بين العقيدة والعلم، ويعطي العلم ذاتية مستقلة. ومنها كتاب "العصبية والدولة" لمحمد عابد الجابري، الذي جعل المشكل السياسي هو المحور الذي تدور حوله المقدمة، وجعل العصبية هي المفتاح. ومنها كتاب "الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون" للباحث عبد الغني مغربي، الذي دافع عن تأسيس ابن خلدون لعلم الاجتماع، وأن فصول المقدمة تمثل فروعاً من علم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والمعرفة.

أما الدراسات ذات الطرح الإسلامي، فيرى المؤلف ان هذا الاتجاه جاء متأخراً عن الاتجاهين السابقين، باستثناء بعض المقالات القليلة، كمقال عمر فروخ "موقف ابن خلدون من الدين ومن القضايا الدينية"، ومحمد الطالبي "منهجية ابن خلدون التاريخية وتأثيرها في المقدمة وكتاب العبر"، وعبد المجيد امزيان "التوازن بين الفكر الديني والفكر العلمي عند ابن خلدون" التي اتجهت إلى مناقشة أصول التوازن الفكري عند ابن خلدون، وبيّنت أن مصادر الوحي فتحت على ابن خلدون مجالاً للمعرفة، وربطت العلاقة بين الإنسان والخالق والكون.[٢]

أما عماد الدين خليل فقد كتب "ابن خلدون محاولة في المنهجية الإسلامية" و"ابن خلدون إسلامياً" وكان هدفه متابعة ملامح العلمية الإسلامية في منهج ابن خلدون، الذي تتمثل في ثلاثة مستويات، هي: النشاط المعرفي، والرؤية التربوية، وحركة التاريخ.

ولعل من الإنصاف التنبيه إلى أن دراسات الطرح الإسلامي في الفكر الخلدوني ما تزال في طور تمهيدي، فهي ما تزال تحوم على أطرافه دون التوغل في أمّات القضايا التي حاول ابن خلدون أن يجيب عنها في مسألة العمران والإنسان، أو الدين والعلم، وكل ما قدمه هو مجرد مقدمات تؤكد إمكانية صياغة طرح بديل لفهم مقاصد علم العمران ودلالاته التطبيقية.[٣]

[٢] المرجع السابق، ص٤٣.
[٣] المرجع السابق، ص٤٩.

ولا يمكن في هذا الجانب تجاهل مؤلفات مالك بن نبي الذي يمثل امتداد الفكر العمراني، بشروط مختلفة عن التي عاشها ابن خلدون؛ إذ وظف مفاهيم ابن خلدون بلغة عصرية، كما هو الحال في مفهوم الوازع الديني، الذي تحول إلى فكرة دينية في نصوص ابن نبي، والكلام نفسه يمكن التدليل عليه في مفهوم العصبية الذي تحول كذلك إلى شبكة علاقات اجتماعية.[٤] إلا أن هذه الدراسات التي تعنى بالبحث عن الجذور الإسلامية للفكر الخلدوني ما زالت تعاني النقص من الناحية الكمية والنوعية.

أما **الفصل الثاني** فقد خصصه المؤلف لبيان نبذة عن حياة ابن خلدون وشخصيته العلمية، تحدث فيه عن نشأته وتكوينه العلمي، والأوضاع السياسية والعلمية في عصره، وأثر العلوم الشرعية في تشكيل وعيه العلمي. وقد حظي هذا الجانب باهتمام كثير من الباحثين، مسلمين وغيرهم. ويُعد المنهج السياسي الذي سلكه ابن خلدون ثمرة من ثمرات الرؤية الكونية التوحيدية، ونظراً للتداخل بين مفاهيم السياسة وعلاقتها بالعلم والدين، فقد واجه المستشرقون وأتباعهم صعوبات حالت دون اتفاقهم على صورة واضحة تفك العلاقة بين هذه المفاهيم.

الاتجاهات الرئيسة في تفسير شخصية ابن خلدون

تمايزت وجهات النظر لدى الباحثين في الوقوف على أهم العوامل التي أسهمت في بناء شخصية ابن خلدون وتشكيل عبقريته، التي مكنته من اكتشاف علم العمران، ولم يكن في حسبان كثير منهم أن الظروف الصعبة التي عايشها قد تكون عاملاً مساعداً على تحقيق ذلك، وهذا الانطباع فتح أمام هؤلاء الباحثين باباً واسعاً للاختلاف والتناقض في تحديد منبع إبداعه، وبيان معالم شخصيته.

يرى المؤلف من خلال التطواف بين دارسي الظاهرة الخلدونية إمكانية التوصل إلى ثلاثة اتجاهات لتفسير ذلك، الأول: تحليل الصراع الطبقي، والثاني: الاجتماعي والمادي، والثالث: الجوانب النفسية والذاتية في شخصيته. ومن بين هؤلاء من يتبنى نظرية روزنتال (Franz Rosenthal) الذي ترجم المقدمة إلى الإنجليزية، وقام بربط أحداث من حياته

[٤] المرجع السابق، ص٥٣ وما بعدها.

في صورة تتناغم مع نظريته، في محاولة لصياغة إطار إيحائي مؤثر،[٥] وهناك دراسات أخرى ركزت على تشاؤمه، لعل من أشهرها ما قدمه أنور أمين في أطروحته في جامعة سيراكوس (Syracuse) الأمريكية عام ١٩٧١م، التي حاول فيها تفسيراً يعتمد على نظرية الرجل الحدي لعبقرية ابن خلدون، وهي نظرية تفترض وجود صراعات نفسية لا إرادية وأحوال سلبية تؤثر في توجيه المتغيرات في شخصيته.

الطفرة الخلدونية في ضوء النظرة التوحيدية

يرى الذوادي أن ثمة ظاهرة فطرية تسمح للناس بالتمييز بين العمل المبدع والعمل العادي، بصرف النظر عن الفروق الاجتماعية والثقافية والحضارية، ويشرح هذا بأن الله سبحانه قد خلق الشخصية الإنسانية مجهزة بمعايير فطرية لتميز الإبداع عن غيره، وهو دليل على أن ظاهرة الإبداع يتعذر عزلها عن الملامح الشخصية للفرد الذي يحققها فعلياً.

أما البعد الديني في الإبداع فهو بعدٌ واضحٌ في سيرة ابن خلدون؛ علماً وسلوكاً، وبهذا يمكن القول بأن محاولته تفسير ظاهرة الإبداع الخلدوني تعد خطوة مهمة في فهم المسألة على وجهها الصحيح، وذلك بفضل توظيفه الموفق لنتائج البحوث الحديثة في علم النفس والاجتماع، وإشارته إلى أهمية العامل الديني، والنظرة الكونية في هذا الجانب.

ويمكن في هذا السياق التنويه بكتاب علي أومليل "الخطاب التاريخي: دراسة لمنهجية ابن خلدون" الذي تكلم فيه عن بداية التصوف في المغرب والأندلس، وبيّن بعض خصائصه، ووضح علاقاته مع سلطتي الفقهاء والحكام، وأراد الوصول إلى نتيجة مفادها أن ظاهرة التصوف في المغرب اتجهت إلى النمط السُّني الذي دافع عنه كل من القشيري والغزالي.

رغم هذا الكم من الدراسات التي سُطّرت لفهم حياة ابن خلدون إلا أن ما قدمته ليس كافياً، وتبقى النظرة الكلية المتعلقة بحياته هي الخطة المنهجية لإمكانية تجاوز التناقضات التي ظل يبثها المستشرقون وأتباعهم منذ عقود، ويجب أن تقوم هذه القراءة على معايير النظرة التوحيدية المستلهمة من مصادر الوحي، وذلك للرد على مزاعمهم

[٥] المرجع السابق، ص٩٠.

حول ابن خلدون، وإسقاط الزيف الذي لا يخضع لمعايير البحث العلمي من وجهة النظر الإسلامية، وبيان القيمة العلمية للنظرة الكونية وتحسين أدائها العملي.

أما **الفصل الثالث** من الكتاب فقد خصصه المؤلف عن علم العمران: موضوعه ومنهجه وتقويمه، وفيه تحدث عن كتاب المقدمة، مفتتحاً كلامه بالحديث عن أهميتها في العالم الإسلامي، رغم تأخر الحديث عنه في العالم الغربي، ودلل على أن المسلمين لم يبدوا اهتماماً بالمقدمة إلا في القرن الثامن عشر.[٦]

لم يمنع تقدير الباحثين للمقدمة من توجيه النقد اللاذع لها في مسائل عديدة، منها مدى التزام ابن خلدون بقواعد المنهج الذي وضعه، فالمقدمة هي منهج نظري لعلم التاريخ البشري، وهي كيان مستقل لا علاقة لها بكتاب العِبَر، بالرغم من عنوانها الذي يدل على أنها تمثل تمهيداً لكتاب العبر.

التفسير التوحيدي لترتيب فصول المقدمة، وبيان مضامينها

لعل أهم نقطة يجب الإشارة إليها في هذا العرض هي أن الدراسات التي حصرت الموضوع المحوري للمقدمة في المسألة السياسية وقعت في خطأ، تسبب في اختلافهم في تحديد شخصية ابن خلدون وسلوكه، كما وقع الآخرون في سوء تقويم جهوده، واختلافهم في تحديد ما وصفوه بالطفرة الخلدونية، هل هو العصبية، أو البداوة والحضارة، أم الدولة التاريخية، أم غيرها على اختلاف بين الدارسين.

يرى المؤلف أن اعتبار الإنسان الموضوع المحوري هو الذي يمكن حمل المقدمة عليه من غير وقوع في تهميش لأي مجال من المجالات، وهو التغير المهم الذي تنطلق منه النظرة التوحيدية في فهم الفكر الخلدوني، وبمقتضى هذا الإجراء الذي يحول الموضوع المحوري للمقدمة إلى الإنسان يتحرر الفكر، وتذوب القوالب المنطقية الصورية المغلقة والعاجزة عن استيعاب حقائق ما فوق عالم الحس والمنطق، والإدراك الإنساني المحدود، في الدراسات الإسلامية.[٧]

---

[٦] المرجع السابق، ص١٢١.

[٧] المرجع السابق، ص١٢٥ بتصرف.

يقرر المؤلف أن مفهوم العمران في الفكر الخلدوني ليس من جنس المفاهيم البسيطة، بل هو مركب ذو معان متداخلة، تحددها مستويات مختلفة، وقد جاء استعمال هذا المفهوم في المقدمة على أوجه متعددة، وتُعدُّ هذه الأوجه مفتاحاً لتفسير غيرها من الظواهر؛ إذ ارتبط هذا المفهوم بمجموعة من القضايا الإيجابية والسلبية؛ أما الإيجابية فهي التي تُعبّر عن الطبائع مثل الاستخلاف والتمدُّن، والكسب، والحضارة وغيرها؛ وأما السلبية مثل التناقض، والخراب، والفساد، والترف، وغيرها.[٨]

تحدث ابن خلدون في بيانه لمفهوم العمران عن ثلاثة أنماط من التجمعات البشرية: التجمع الطبيعي، والبدوي، والحضري، وربط بينها بروابط شبه ضرورية تحددها الأسبقية بينها، كما هو واضح في تفسيره لنشأة المُلْك وتأسيس الدولة بوصفها كياناً سياسياً، ويرى المؤلف أن تفسير بعض جوانب القانون العلمي في الفكر الخلدوني يتوقف على استيعاب قضية مهمة، وهي دور المصطلح القرآني الذي يتضمن معنى خاصاً مهيمناً، يتحكم في العلاقات التي تعطي النص بنيته اللغوية والفكرية.

موضوع علم العمران

لما كانت وظيفة علم العمران هي التحقق من مطابقة القضايا للوقائع؛ فإن غاية علم الاستخلاف هو التحقق من مطابقة الأمر الوجودي للأمر الشرعي على حد تعبير ابن خلدون، فكل إنسان هو مستخلف في هذه الأرض، ولا يكون كذلك إلا إذا كانت أفعاله وفق الهداية والوحي الذي جاء به رسول الله ﷺ، وهكذا تتضح أهمية وروود مسألة النبوة والاستخلاف وغيرها في المقدمة.[٩]

منهج علم العمران

كان ابن خلدون مُلِمَّاً بأهمية الشروط الضرورية لتشكيل الأساس الأول لبناء علم العمران، وكانت أولى خطوات تحقيق ذلك هي تحديد الأولويات التي يقوم عليها هذا

[٨] المرجع السابق، ص١٣٢.
[٩] المرجع السابق، ص١٣٧.

العلم، منها (الإنسان كائن اجتماعي بالطبع) و(الاجتماع الإنساني ضروري)، ثم تأكيده مراراً على ضرورة ربط هذه المقدمات بجذورها الدينية، فالله سبحانه هو الذي حدد فيها السنن التي تسيّر حياة الإنسان.[١٠]

وتُعد فلسفة المنهج الخلدوني في علم العمران خطاباً مركباً من أبعاد متداخلة يصعب تحديد معالمها، مما جعل المسألة مستعصية في نظر كثير من الباحثين، وذلك لأنَّها ترجع إلى عاملين أساسيين هما: طبيعة نصوصه المفتوحة، ثم الإضافات الذاتية التي يحاول كل باحث إدراجها ضمن معتقداته الفكرية، وهو ما جعل بعض الباحثين يخوضون في متاهات الغموض والتحريف، خاصة في تحديد طبيعة منهج ابن خلدون ودور الدين فيه، وأثره في صياغة الفروض والتصورات العملية. وقد تظاهرت نداءات الباحثين في سبيل تبيين العلاقة بين منهجية علم العمران والمناهج المعروفة في الفلسفة والعلوم الطبيعية، فاهتم بعضهم بتفسير العلاقة التي تربط قواعد المنهج التي وضعها في المقدمة، وقد حصرها محسن مهدي في خمسة مجالات، هي: العمران البدوي، والعمران الحضري، والدولة والمدينة، والحياة الاقتصادية، والعلوم.

التركيب والتأليف الأصولي في علم العمران

صرح ابن خلدون أن مسائل علم العمران تتقاسهما علوم أخرى من زوايا متقاربة، وهو ما سمّاه الجريان العرضي الذي به يمكن فهم الجانب الوظيفي للقضايا، وهي المجالات التي يهتم بها علم العمران.

لقد تجاهل عدد من الباحثين أهمية التركيب الإبداعي الذي دعّم ابن خلدون به أصوليته، وقد نتج عن هذا التجاهل ثلاثة اتجاهات: الأول: ينكر العلاقة بين علم العمران والعلوم الشرعية. والثاني يقر بوجود هذه العلاقة، ولكنه يقلل من أهميتها. والثالث يتمثل في التأكيد على أن للمجتمع والتاريخ والعمران قوانين موضوعية يجب الرجوع إليها للحصول على معرفة علمية موضوعية حول حركته وأحواله المتغيرة.

---

[١٠] المرجع السابق، ص١٤٤.

مبدأ السببية في علم العمران

يضم تاريخ الفكر الإسلامي تراثاً ضخماً يفسر مبدأ السببية والإشكالات المتعلقة بها في مختلف المؤلفات، خاصة علم الكلام؛ إذ أخذ أصحابها على عاتقهم مسؤولية الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية؛ إذ إن المشكلة الأساسية المطروحة بين المؤيدين لقانون السببية والمعارضين له لا تكمن بالضرورة في البنية المنطقية، واعتقاد أن الارتباط الضروري بين السبب والمسبب في الظواهر ماهو إلا تصور ذهني يولد التكرار.

إن تصور ابن خلدون لمبدأ السببية وطريقة توظيفه يمثل واحداً من المسائل التي أربكت المستشرقين، خاصة في مسألة بيان دور الإرادة الإلهية في حركة التاريخ البشري، مثل سنة الله، وغيرها من المفاهيم الإيمانية الأخرى التي تدور في فلكها. ولم يقتصر نقد المستشرقين السلبي لتفسير ابن خلدون لقانون السببية على انطباعاتهم ومواقفهم فحسب، بل امتدت إلى النتائج التي قرروها في بحوثهم.[١١]

وتكمن أهمية تفسير ابن خلدون لقانون السببية في إبرازه نقطتين مهمتين، هما الإرادة الإلهية، وأثر الشروط الفطرية للنفس البشرية، وهو في هذا يتفق مع من سبقه من العلماء كالغزالي وغيره، وبهذا يتبين خطأ الذين حاولوا فرض المنطق الأرسطي على الفكر الخلدوني، وأن إسهاماته في دراسة الإنسان والعمران البشري تتمثل في إسقاط مبادئ الفلسفة الطبيعية عليه.

موقع علم العمران في هرم تصنيف ابن خلدون للعلوم

يعد تصنيف ابن خلدون للعلوم جزءاً من مشروعه الأصولي، وهو في هذا لم يخالف من سبقه من العلماء، ولكنه أدخل ترتيبات جديدة في تشكيلة هرم المعرفة، فقسم العلوم إلى نوعين: الأول يعنى بالعلوم التي يهتدي إليها الإنسان بفكره كالفلسفة، والثاني العلوم النقلية المستندة للخبر الشرعي.

---

[١١] المرجع السابق، ص١٤٦.

وظائف علم العمران

ذكر المؤلف عدداً من الوظائف: الأولى أصولية، وذلك بالنظر إلى المكانة التي يحتلها علم التاريخ في عصره، وهو ما يمكن وصفه بأنه مركز المعلومات التي تغطي حياة الأفراد وأحوالهم، وهي تؤدي إلى جمع أشتات العلوم وبناء علاقات استدلالية لخدمة الفكر وتنمية قدراته، أما الثانية فتعمل على تنظيم المعارف المختلفة تحت إطار نظري يؤدي علم العمران فيه دور الناظم، والثالثة عقدية، وهي تمثل النور الخفي الذي صاحب ابن خلدون في بحثه وتفكيره، وتحمل القيم والتصورات الإسلامية، وما قدمه من تفسيرات حول الإنسان والعمران، والرابعة عمرانية، ذلك أن علم العمران الخلدوني علم عملي، يتوجه إلى الواقع الذي يعيشه المسلم ليغيره وفق مبادئ الوحي اليقينية.

تقويم الباحثين المعاصرين لعلم العمران

يرى المؤلف أن الأعمال النقدية التي تناولت فكر ابن خلدون قد تميزت بشيء من التنوع، وتمايزت بمقدار إسهامها في إغناء فكره، ويمكن تصنيف مثل هذه الأعمال في مجموعات منها:

الأولى: ما يمكن إدراجه تحت موضوع النقد الإيديولوجي، كالتي وجهها المستشرقون وأتباعهم أمام الفكر العلمي التوحيدي، الذي يجمع بين شروط العلم والعقيدة، بضوابطها الشرعية.

والثانية: ما ينطوي تحت موضوع النقد التخصصي، من زواياه المختلفة، تاريخية أو فلسفية أو أصولية، ولعل ما سطّره المرزوقي في هذا المجال يُعد الأبرز، وفي هذا المجال يمكن إلحاق جهود الجابري وانتقاداته، التي ظهرت ثمارها في مصنفاته، كالعصبية والدولة، ونحن والتراث، وهناك دراسات نقدية أخرى لا تقل أهمية، لكنها لا تدخل في الاهتمامات الأساسية لهذا الموضوع، منها بحث بعنوان "منهجية ابن خلدون التاريخية وتأثيرها في المقدمة" لمحمد الطالبي، وغيره من الباحثين، وهناك ما يمكن تصنيفه ضمن دراسات النقد الشامل، أو ما يخص النقد الفكري العام، كالتي تركز على الأطر والمفاهيم الكلية التي

تخص الفكر الخلدوني، ويأتي في هذا الجانب ما قدمه مالك بن نبي وغيره من تمجيد لعبقرية ابن خلدون، وجهوده في صياغة الفكر الإسلامي.

أما **الفصل الرابع** فقد وسمه المؤلف بـ"أثر الرؤية الكونية التوحيدية في علم العمران" وهو أهم مباحث الكتاب، وفيه عرَّف الرؤية التوحيدية الكونية، ووصفها بأنها الكيفية الفكرية أو التصورية المكتسبة التي زوّد الله بها الإنسان، فهي ليست غريبة عن الأجزاء الأخرى التي تكوّن ماهيته،[١٢] بل هي بهذا المعنى جزء من المعرفة الضرورية، وتشمل حياة الإنسان ورسالته في الدنيا، وما ينتظره في الآخرة.

وفيه تحدث المؤلف عن الرؤية التوحيدية عند المسلمين قبل ابن خلدون، ذلك أن تجليات هذه الرؤية هي امتداد لما بدأه علماء الإسلام في توظيفها، حتى باتت عنده في غاية الأهمية، لا سيّما ما يتعلق بالقضايا التي تعكس الفوارق الجوهرية الكامنة بين الدراسات الخلدونية المنضوية تحت الاتجاهات العلمانية والمادية من جهة، ودراسات الاتجاه الإسلامي من جهة أخرى.[١٣]

عمل الرؤية الكونية التوحيدية في المقدمة

لتفصيل بعض المسائل المتعلقة بعمل الرؤية الكونية التوحيدية لا بدّ من تتبع فعاليتها في ثلاثة مستويات متلازمة ومترابطة، وهي: المفاهيم، والفروض العلمية، والنقد الأصولي.

ولعل أولى خطوات ابن خلدون في هذا المجال هو رسم العلاقة بين اللغة والوحي، والتي أصبحت محوراً تنضوي تحته المفاهيم الأخرى كافة، مثل مشروعية المُلْك والعصبية والخلافة وغيرها. ولم يكن أثر هذه الرؤية التوحيدية محصوراً في الجوانب النظرية التي تشغل اللغة جانباً أساسياً منه، بل تعدّاه إلى النواحي العملية التي يؤول إليها المفهوم بالوصف والتحليل. وعلى المستوى الثاني ساهمت هذه الرؤية في صياغة الفروض العلمية، ذلك أن الفرضية التي استند إليها ابن خلدون في تكذيب الأخبار تجاوزت طبيعة الخبر إلى أمر آخر، بتمحيصها والاستدلال عليها بعدد من الأدلة.

---

[١٢] المرجع السابق، ص٢٠٤.

[١٣] المرجع السابق، ص٢١٥.

الرؤية الكونية التوحيدية وبناء الاستدلالات[١٤]

كان الغرضُ من إثارة هذا الجانب النظرَ في العناصر الاستدلالية التي ميزت الخطاب الخلدوني، وأهّلَته أن يكون من نماذج الفكر العلمي، وذلك من خلال اعتماده على قانون المطابقة ونقد البرهان الصناعي، بوصفه وسيلة عملية لضمان حصول التحقق من صدق الأخبار وصحتها، ولكن المطابقة الفعلية تبقى ملتبسة بالظروف الإنسانية المتغيرة، يعتمد فيها على كليات مأخذوة بصورة مباشرة أو غير مباشرة من مصادر الوحي والمعارف التي استنبطها علماء المسلمين، أما المقاصد التي أراد تحقيقها فهي تتعلق بإيجاد الوسيلة البرهانية المناسبة لوضع علم العمران، ومراعاة معايير النظرة الكونية فيه، فالمنطق الأرسطي يشوبه العجز في استغراق ميدان هذا العلم، ولهذا كان تَبَنِّيهِ لهذا المنطق هو إجراء علمي دقيق يهتم بطبيعة الموضوع الذي يتناوله بوصفه مسألة كلية، وهو ما جعل منهجيته أقرب إلى مناهج العلوم البشرية.

تتجلى أهمية الفكر عند ابن خلدون بوصفه هِبة إلهية، وقد حرص المؤلف على بيان جوانب التفكير التي لها علاقة مباشرة بالنظرة التوحيدية؛ إذ يرى أن هذه الهداية هي التي تدفع البشر إلى التعاون وتحصيل المعاش والصناعات، وتوجيه الإرادات لتحصيل السعادة، وبهذا المعنى يكون مفهوم الفكر الخلدوني ليس سوى جانب من جوانب الفطرة الإنسانية التي خلقها الله تعالى في الإنسان.

هذه الفطرة من وجهة نظر ابن خلدون خُلقت مزوّدة باستعداد إلهي، وهي توفر للإنسان شروط التكيّف مع المؤثرات الخارجية، وكان ورود مفهوم الفطرة والبرهان الطبيعي في المقدمة مساعداً في توضيح معالم المنهج البديل الذي اقترحه وسار عليه، وكانت مطالبته بالعودة إلى التفكير الطبيعي تأكيداً على دور الإرادة الإلهية في العمران وما يتعلق به من نشاط إنساني، وهو ما يجعل معايير الوحي تسهم في فهم سلوك الإنسان الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والتربوي، ومنه يتضح الخطأ الذي وقع فيه بعض القراء للفكر الخلدوني، هذه المعايير هي التي جعلت المنفعة عاملاً مثالياً لفهم السلوك

[١٤] المرجع السابق، ص٢٤٠ وما بعدها.

الإنساني، ونشأة الملك وفق حتمية الصراع من أجل تحقيق المنفعة، وهو ما يرفضه الواقع، ويردّه علم العمران التوحيدي.[١٥]

توقف طه عبد الرحمن عن الإجابة عن الأسئلة المرتبطة بطريقة استدلال ابن خلدون في نصوص المقدمة، سواء في ذلك كيفية البرهان، وهل يستمد طريقته من البرهان المنطقي المعهود؟ وإلى أي حد التزم بطبيق قواعده؟ وغيرها من الأسئلة التي جعلت طه عبد الرحمن يتوقف عند نقطتين أساسيتين، هما عناصر الاستدلال البرهاني، التي تتمثل في الترتيب المركب، والاستيفاء في المقدمات، والتوسل بالحد الأوسط، وتتمثل الثانية في البرهان الهندسي الذي تعلمه ابن خلدون من شيوخه، خاصة الآبلي.

ومن هنا فإن معرفة أبعاد موقف ابن خلدون في المنطق، واستخراج صوره من نصوص المقدمة يمثل خطوة مهمة على طريق الفهم بحقيقة المنهجية التي سلكها، ولكن هذا غير كاف، خاصة إذا ما أهملت صيغ الاستدلال الأصولية الأخرى المستخدمة في دائرة العلوم الشرعية، التي أظهرها كلّ من حسن الساعاتي في كتابه "علم الاجتماع الخلدوني" ومصطفى الشكعة في "الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون" وغيرهما، والتي من أهمها: السبر والتقسيم، وقياس الغائب على الشاهد، وغيرها.

خصائص البرهان الطبيعي

لعل ما كتبه طه عبد الرحمن من بيان لخصائص البرهان الطبيعي يعد الأوضح في مثل هذا المقام، فمن خصائص التفكير الطبيعي عند ابن خلدون أنه يدل على حركة النفس بين عوالم متعددة، وأنه يمثل إدراكاً شاملاً يقوم على المدركات الحسية، وأنه ذو توجه عملي، وليد حاجات الإنسان في العمران، كالأمن والحماية، وتحصيل المعاش والتعاون، ومعرفة الحقائق من حوله، ومما يدل على شموليته أنه يقوم من وجهة نظر ابن خلدون بوظيفتين: الأولى تقديم الأفعال الإنسانية وفق نظام وترتيب خاص، وتوجيهها إلى تحقيق المطلوب، والثانية تتمثل في كونه مبدأ للعلم، وذلك حين يقوم الفرد بتصور طرفي القضية،

[١٥] المرجع السابق، ص٢٦١.

بالنفي أو الإثبات، من خلال الانتقال من المقدمات إلى النتائج عن طريق الحد الأوسط.[١٦]

نماذج من قوانين علم العمران الخلدوني

اختلف الباحثون في تفسير القوانين التي استنتجها ابن خلدون من العمران البشري، ووجوه تأثيرها في سلوك الإنسان، والذي كان له أثره الواضح في انقسام الباحثين إلى مذاهب مختلفة، يمكن حصرها في أصحاب الحتمية الطبيعية، والنسبية الاجتماعية، والاتجاه الفوضوي، والمعتمد على سنن الله.[١٧]

إن قانون علم العمران كما يظهر في المقدمة جاء شاملاً لعديد من القضايا التي تشكل شروط الوجود الإنساني، مثل الدين والمعرفة وغيرهما، وتختلف في قربها من الوقائع ودقتها في تحليل العلاقات وتجمع بينها وبين التأثيرات المختلفة، ولكنها تبقى تمثل عند الباحث المسلم إطاراً توجيهياً يساعده على صياغة أصوليات ومناهج في فهم الإنسان وفق نظرة كونية توحيدية.

وفي **الفصل الخامس** تحدث المؤلف عن الإنسان في مقدمة ابن خلدون، وبيّن أن الخطوة الأولى تقود الباحث إلى فرضية مفادها أن موضوع الإنسان في المقدمة يشغل مركزاً محورياً؛ لأن الإنسان هو اللبنة التي يقوم عليها المجتمع وليس العكس، ومن جراء هذا الوصف جعلت بعض الدراسات من الفكر السياسي الخلدوني مفتاحاً سحرياً لتفسير الظواهر والقضايا التي أثارها، كمفهوم الدولة التاريخية والبداوة.

لم يكن اهتمام ابن خلدون بالسياسة منفصلاً عن محاولة فهم الطبيعة البشرية في تفاعلاتها مع طبيعة العمران، وقد ركز على سقوط الدول وما يتبع ذلك من تناقص لهرم العمران، وهي الظواهر التي تعود إلى سلوك الإنسان وإرادته.

من هنا يمكن القول: إن انطلاقة ابن خلدون في فهمه لماهية الإنسان كانت مبنية على ثلاثة مكونات،[١٨] وهي: القدرات التي خلقها الله في الإنسان، والتي فتح بابها

[١٦] المرجع السابق، ص٢٧٣.
[١٧] المرجع السابق، ص٢٧٩.
[١٨] المرجع السابق، ص٢٩٠.

بدراسة الفطرة الإنسانية، ثم السلوك، ثم المقاصد والواجبات التي أسندت إلى الإنسان في هذه الحياة كالاستخلاف والتعمير وغيرها.

ويعد هذا الدور الذي قام به ابن خلدون في هذا المجال رائداً من خلال النظر إلى تداخل العوامل النفسية في الشخصية الإنسانية، وفيه رد على بعض الدارسين، أمثال الوردي وفؤاد بعلي، اللذين حاولا تعزيز التفسيرات المادية بادعائهم سلبية مفهوم الإنسان، بوصفه غير قادر على التأثير في التغيرات المهمة.

كليات الفطرة الإنسانية في ضوء المقدمة

يرتكز الفكر الخلدوني على الفطرة الإنسانية، ويركز على أهميتها في تشكيل تصوراته الكلية عن الإنسان، وعلاقة هذا الإنسان بالعالم الخارجي، وهو ما بدا واضحاً في "شفاء السائل" حين تكلم عن أثر بواطن النفس في السلوك الخارجي، ومفهوم الاستقامة والانحراف في السلوك، ومشكلة التقليد أو الاقتداء، وعلاقة ذلك بين النفس والقلب والعقل، والعلاقة بين النفس والروح، ومعنى السعادة، وعلاقة ذلك بالمجاهدات ورياضة النفس، وهي مباحث مهمة تصب في مسألة الطبيعة الإنسانية.

وتتمثل قيمة الفكر الخلدوني في فهم الفطرة الإنسانية في تضييق تأثيرات الفكر اليوناني على تصوره، وفي هذا الجانب يجد القارئ الكريم فارقاً واضحاً بين ابن خلدون وغيره من فلاسفة المسلمين؛ إذ تمكّن ابن خلدون من حماية فكره من آفة الخلط بين التصورات الفلسفية المعقدة والتصور الإسلامي، من خلال مناعة الرؤية الكونية التوحيدية التي تمسك بها في تفسيراته وبحثه.[١٩]

الجانب الروحي والعقدي والنفسي والمعرفي

تحت هذا العنوان تحدث المؤلف عن أن النفس الإنسانية عبارة عن كيان يضم في داخله قدرات فكرية وذهنية وشعورية متداخلة، وهي مسؤولة عن بناء التصورات التي تتحول إلى حركات إرادية وغير إرادية، تعكس الفعل الإنساني بأكمله، ولذا أدخله ابن

[١٩] المرجع السابق، ص٢٩٩.

خلدون في تركيب وجوده، وتحديد مداركه. وهو ما بدا واضحاً في تفسيراته التربوية، خاصة فيما يتعلق بتحليل الحالات النفسية المساعدة، بالإضافة إلى إبرازه للملامح النفسية التي تتلون بها شخصية التاجر بسبب البيع والشراء، لأجل تحصيل الربح.

وتكمن أهمية تفسير ابن خلدون للنفس الإنسانية في تتبع العوامل التي تتسبب في فسادها وانحرافها، وبيان أثر ذلك على المستوى الفردي والجماعي، مما يجعل نظرته لهذه النفس أشد ارتباطاً بالمحيط الذي تتكون فيه، نظراً لاهتمامه بالعوامل المؤثرة في الإنسان.[٢٠]

ولم يهمل ابن خلدون أثر الجانب السياسي في النفس الإنسانية، وحاول أن ينظر في الملامح التي تشكّل شخصية الإنسان في ظل الظروف السياسية، وهو ما يسهم في فهم جذور المشكلات التي تواجهها الأمة الإسلامية خاصة فيما يتعلق بالدين ومراجعة أثره في الاستخلاف والتعمير.[٢١]

الجانب الاجتماعي والعمراني

أشار ابن خلدون إلى مسلّمة معروفة لدى الحكماء والفلاسفة من قبله، وهي أن الإنسان مدني بالطبع، وأن الاجتماع الإنساني ضروري، وفسّر ذلك من خلال الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والتي من مبادئها الحاجة إلى الغذاء، وإلى دور الإنسان في ظل قوانين العمران من خلال التعرف إلى الطبائع والأحوال، ومحاولة التأثير في تلك الأحوال، وهو ما يكشف خطأ بعض الباحثين كعلي الوردي، وفؤاد بعلي، في قولهما أن ابن خلدون لم يطور حلولاً لعلاج أيّة مشكلة.

كليات ابن خلدون في معرفة الإنسان وفهمه تحت شروط العمران[٢٢]

للوقوف في هذا الجانب على نماذج من الكليات التي اعتمدها ابن خلدون في فهم الإنسان، لا بدّ من التعرف إلى بعض المسائل التي تشكّل مركب العمران البشري

[٢٠] المرجع السابق، ص٣١٠.
[٢١] المرجع السابق، ص٣١٤
[٢٢] المرجع السابق، ص٣٢٠.

وشروطه، وهي: الدين والعصبية والعُرف، بوصفه جزءاً من الثقافة. وهو ما نبّه إليه ابن خلدون في المقدمة، وحثّ على ضرورة الاهتمام بالمآلات الأخروية للناس داخل العمران، بتوفير الشروط الموضوعية لتحقيق الإيمان وصلاح الأفعال التي تؤهلهم لتحقيق السعادة الآخروية. وفي مقابل ذلك كان قد حذّر من أن الانهيار الذي يصيب العمران البشري في مرحلته الأخيرة "الحضارة" غالباً ما يكون سببه فشوّ الترف.

الإنسان وشروط العمران في المقدمة

تحت هذا العنوان تحدث المؤلف عن العصبية في خطاب ابن خلدون، وهي من أهم المفاهيم التي اعتمد عليها في تفسير حركة المجتمع وانتقاله من نمط بدوي إلى حضري، وعن العُرف وأثره في الوعي والسلوك الإنساني،[٢٣] ومن أهداف هذه الدراسة التأكيد على أهمية علم العمران، وضرورة تفعيله.

كان اهتمام ابن خلدون بالعُرف موجهاً إلى تحليل بعض الجوانب النفسية والاجتماعية في نشأة هذه الظاهرة وتطورها، ومن هنا فإن علاقة النفس بالعادة عند ابن خلدون ليست منحصرة في الأفعال التي تغلب عليها صيغة اللاشعوري التي تتحول إلى أعمال آلية، وتمتد إلى عمليات معقدة تتطلب درجة عالية في تعلم الصناعات واكتساب الخبرات والملكات المختلفة التي يحتاج إليها الناس، وفي هذا الجانب يقول ابن خلدون: "إن العوائد تغلب طباع الإنسان إلى مألوفها، فهو ابن عوائده لا ابن نسبه."[٢٤]

أهمية علم العمران للفقه الإسلامي في فقه الواقع

يُعدّ فهم الواقع نافذة تساعد على تحقيق مقاصد الوحي، وهو أمر ضروري يلزم عنه ضرورة النظر في توافق العُرف مع الشرع أو مخالفته، وذلك لأن مصادر الوحي تتوافر فيها الأدلة والقواعد والأحكام اللازمة والشروط العلمية والمبادئ الأصولية التي تمكّن الفقيه من التمييز بين العُرف المعتبر شرعاً وغيره.

[٢٣] المرجع السابق، ص٣٢٨-٣٣٣.
[٢٤] المرجع السابق، ص٣٤٣.

وفي مجال تطهير المجتمع المُسلم من الأعراف الفاسدة ركز ابن خلدون على محورين، هما: فطرة الإنسان، وطبيعة العمران، ومن خلالهما فإنَّ علم العمران مؤهل لتقديم خدمات معرفية لتلك الأصول.

مفهوم الاستخلاف عند ابن خلدون وشروطه

الكلام عن عقيدة الاستخلاف في حياة المُسلم ينطوي على نماذج ومشاريع إصلاحية عديدة، يحاول أصحابها إيجاد طريقة لتفعيلها في حياة المُسلم، فهو ليس معزولاً عن علم العمران، وأهميته لا تقل عن العمران، بدلالة الإرادة الإلهية في خلق الإنسان، ولهذا كان وروده في المقدمة واضحاً.

استعان ابن خلدون بمفاهيم أخرى لتوضيح عقيدة الاستخلاف، ينبني بعضها على نظام كلي، تشكل مادته ثلاث قضايا أساسية، هي: مرجعية الوحي، والفطرة التي يميزها الفكر، وهي في نظر ابن خلدون عماد العمران البشري، ونظام العالم والحوادث الفعلية، وهو شرط يجمع بين الانسجام والترتيب الذي تظهر عليه الموجودات وأفعال الإنسان، وإدراكه العلاقة بين الأسباب والمسببات.

واستعان كذلك بمفهوم التسخير لتأكيد العلاقة بين نظام العالم بالاستخلاف، واستدل عليه بعدد من آيات القرآن الكريم، من التذليل والملكية، والمصلحة، وبهذا كان ابن خلدون ينظر إلى طبيعة العلاقة التي تشكل الوجود الإنساني في إطار ثلاثة معالم متمايزة تتمثل في عالم الحس، والنفس، والروح.

أما **الفصل السادس** فهو عن مفهوم العلم عند ابن خلدون، وفيه تحدث المؤلف عن العلم والمعرفة الإنسانية في المقدمة، وعن تعدد وجهات النظر حول القراءات التي تناولت نظرية المعرفة الخلدونية، التي يمكن حصرها في أربعة اتجاهات: اتجاه التفسير الواقعي، واتجاه التفسير الذاتي الذي يعتمد على شخصية ابن خلدون، واتجاه الفكر الدخيل، واتجاه التفسير التوحيدي. وتحت عنوان الإمكانات والمعرفة تحدث المؤلف عن

جهود ابن خلدون في بيان قدرات الإنسان الإدراكية، ومجال تحصيل المعرفة بأنواعها المتعددة، أما الوسيلة إلى المعرفة الخلدونية كما يرى المؤلف فهي تتمثل في بناء مناهج البحث واعتماده على مبدأ المطابقة بين أقطاب ثلاثة، هي: الوحي، والواقع، والخبر، وقد أفاد ابن خلدون من التراث الأصولي النقدي الذي تركه علماء المسلمين، أمثال ابن حزم والغزالي وغيرهما في الرد على المنطق.

ومن مظاهر تفعيل معيار الانسجام مع كليات المصلحة المعتبرة، وقوفه عند الإفادة من القوانين العمرانية التي تنظم حركة المعرفة في المجتمع، وإثارة عدة مسائل تدخل تحت المباحث الأصولية للمعرفة، وربطه بين الفكر والحوادث الفعلية، وتفسيره ماهية العقل التجريبي، والعقل التميزي والنظري، وهي قدرات وملكات معرفة متكاملة في الإنسان.[٢٥]

خصائص فكر ابن خلدون الأصولية

يقرر المؤلف أن هناك كثيراً من أصحاب القراءات المادية واجهوا صعوبة في إيجاد أدلة موثوقة تثبت انفصال الفكر الخلدوني عن العقيدة الدينية، لأجل تغريب هذا الفكر، وهو ما تمّ الردّ عليه بإثبات مناعة الفكر الخلدوني التي جاءت ثمرة التزام ابن خلدون بمعايير الرؤية التوحيدية في المعرفة الإنسانية.

خطا ابن خلدون في إثباته عراقة فكره، بإعطاء عالم الغيب الأهمية التي يستحقها بالرجوع المباشر إلى مصادر الوحي. وهذا الارتباط بمصادر الوحي، وقراءته للوقائع وفق الرؤية الكونية التوحيدية، أنتج عنه جملة من الفوائد، منها: اتساع أفق مدارك الباحث، وعمق رؤيته في فهم سلوك الناس، واختصار الوقت وتحقيق الدقة بلغة عملية دقيقة، ثم اكتساب خاصية اليقين التي تفتقدها كثير من العلوم الإنسانية، وأنها تسمح للباحث أن يكون في موضع أقرب إلى الواقع الحقيقي الذي يعيشه المسلم بخصوصياته، وأخيراً تقوم الرؤية الكونية التوحيدية بوظيفة نظام المناعة في الفكر، كما هو الحال في السلوك، فتاريخ الفكر الإسلامي يقدم أمثلة عن المدارس الكلامية العقلية، كالمعتزلة وغيرها، وذلك من

[٢٥] المرجع السابق، ص٣٩٠.

أجل تحويلها إلى مشاريع تسعى لهدم قيم الأمة العليا، في الوقت الذي تتقوى فيه شوكة الفكر الإسلامي الأصيل، برؤية كونية توحيدية.[٢٦]

ولم يحصر ابن خلدون إصلاحه للمنظومة الأصولية في التاريخ فحسب، بل حاول كما يرى المؤلف الإفادة من معرفته وخبرته في دراسة قضايا تنتمي إلى معارف أخرى غير التاريخ، وبناء التفسيرات لظواهر متعددة، ويظهر هذا من طبيعة العلاقة بين المقدمة والعِبَر، وهو ما واجه انتقادات كثيرة.

السعي لتحقيق المقاصد الشرعية

البُعد المقاصدي في الفكر الخلدوني واضح بقوة كما يرى المؤلف، وهذا بسبب معرفة ابن خلدون بآثار من سبقه من أصحاب هذا الشأن، كالشاطبي وغيره، وأصولية المقاصد في الفكر العمراني تتحرك في اتجاهين، نظري وعملي، وهو ما ساعد على استيعاب مجموعة من الظواهر باختلاف مجالاتها، ولهذا فإن الناظر في مقدمة ابن خلدون يرى أنها تحتوي على كليات الفكر المقاصدي المعروفة، كالمحافظة على الحاجات الخمس، وبنائه لاستدلالات مناهج التفسير المعتمدة.

[٢٦] المرجع السابق، ص٤١٠.